من عالم الصراب

قبضة طين

قصة قصيرة من عالم الصراب

مهلهل علي الفقيه

الشخصيات

رحمة: في الخامسة والثلاثين. أرملة منذ سنتين. مات زوجها صالح على هذا الطريق نفسه وهي تحمله إلى المدينة، وقال لها الطبيب يومها: «لو جئتم قبل يوم واحد». ومنذ ذلك اليوم تعدّ كل شيء بالأيام، ولا تسامح نفسها على يوم لم تملكه.

مروان: ابنها، في التاسعة. يصنع من طين الوادي ثيراناً صغيرة ويحلم أن يذهب إلى المدرسة في المدينة. صعد جدار المدرّج ليخبّئ ثوره الجديد في مكان لا تصله الدجاجات، فسقط. ويظن أن كل ما سيجري بعد ذلك ذنبه.

الحكيم عوض: طبيب المدينة الوحيد، في الخمسين. هو الذي قال لرحمة تلك الجملة قبل سنتين. قضى عمره يصل متأخراً: مرضاه يموتون في الطريق قبل أن يصلوا إليه، فصار رجلاً جافاً يحمي نفسه بالسخرية من حكايات القرى.

القصة

١

كان الثور الطيني الجديد أجمل ما صنع مروان. له قرنان مقوّسان ورقبة غليظة، وقد جففه ثلاثة أيام في الظل كي لا يتشقق. وكانت الدجاجات قد كسرت الثورين اللذين قبله، فقرر أن يضعه على رأس جدار المدرّج، حيث لا يصل إليه شيء.

وضعه هناك. ثم انزلقت قدمه.

سقط على حجر مسنون، فانشقت ساقه من الركبة إلى منتصفها. صرخ مرة واحدة ثم سكت، وكان سكوته أشد على أمه من صراخه.

ركضت رحمة إليه. شدّت الجرح بطرف خمارها، ثم بحزام أبيه القديم. ولما رأت الدم يشرب القماش ولا يشبع، عرفت أن ما في القرية لا يكفي. والطبيب في المدينة على مسيرة يومين لمن يمشي خفيفاً.

يومان.

قبل سنتين حملت زوجها على الطريق نفسه، وكان قد جرح يده بالمنجل جرحاً ظنّته صغيراً. وصلت به في اليوم الثالث محموماً لا يعرفها. نظر الحكيم عوض إلى ذراعه المسودّة وقال وهو يغسل يديه: «لو جئتم قبل يوم واحد.» ومات صالح في الليلة نفسها.

ومنذ ذلك اليوم تعرف رحمة شيئاً واحداً بيقين: أن الطريق إلى المدينة أطول من أعمار الجرحى.

لم يكن في القرية دابة. فقد نزل الرجال بالجمال إلى السوق. حملت ابنها على ظهرها وربطته إليها بحبل الحطب، ومشت.

همس مروان في أذنها: «الثور يا أمي... بقي على الجدار.»

«اسكت.»

«أنا آسف.»

لم تجبه. كانت تعدّ خطواتها.

٢

عند الغروب بلغت قاع الوادي. كان الطمي ما يزال رطباً من سيل الأسبوع الماضي، أسود لامعاً تغوص فيه القدم إلى الكاحل. وكان مروان قد صار ثقيلاً على ظهرها، ونفَسه حاراً سريعاً على رقبتها، والدم قد بلغ طرف الحزام.

تعثرت فمالت، ومال مروان معها. فمدّ يده كما يفعل كل يوم حين ينزل إلى هذا الوادي، وقبض على حفنة من الطين.

ثم سكن.

لم يكن سكونه سكون النائم. شعرت به رحمة يتغير على ظهرها كله دفعة واحدة. توقف ارتجافه، وتوقف نفَسه الحار على رقبتها. ففزعت، وأنزلته على صخرة ووضعت أذنها على صدره.

لا شيء.

ثم، بعد زمن طويل حتى ظنت أن قلبها هي سيتوقف، خفقة واحدة.

انتظرت. وعدّت حتى العشرين. ثم خفقة أخرى.

مسحت وجهه بكفها فوجدته دافئاً، وعيناه نصف مغمضتين لا ترمشان. رفعت يدها أمام فمه فشعرت بنفَس واحد خفيف، ثم لا شيء طويلاً، ثم نفَس آخر. كأن ابنها يتنفس وهو في مكان بعيد جداً.

فكّرت أنه يموت. وفكّرت أن هكذا يكون الموت حين يأتي بطيئاً. فحملته من جديد وركضت.

٣

مشت الليل كله وهي تنتظر أن يبرد على ظهرها. لكنه لم يبرد.

في الفجر أنزلته لتسقيه، ففكّت الحزام لترى الجرح وقد هيأت قلبها لأسوأ ما يمكن أن تراه.

لكن البقعة الحمراء لم تتغير. كانت حيث تركتها عند الغروب تماماً، بحوافها نفسها وطرفها الذي بلغ الحزام. ليلة كاملة من المشي، ولم يسل من ابنها قطرة واحدة.

ونظرت إلى يده. ما تزال مقبوضة على الطين.

أرادت أن تغسلها. ففتحت أصابعه واحداً واحداً، ولم تمسّ الطين نفسه، بل تركته يسقط على حجر.

فشهق مروان شهقة طويلة كمن خرج من تحت الماء.

ارتجف جسده كله، وعاد نفَسه حاراً سريعاً كما كان في الوادي، وفتح عينيه وصرخ من الألم. ورأت رحمة البقعة الحمراء تتحرك تحت عينيها. صارت تتسع وتسيل على الحزام، كأن الدم الذي انتظر طوال الليل تذكّر فجأة أن عليه أن يسيل.

قال مروان وهو يبكي: «أين نحن؟ ألم نكن في الوادي؟»

نظرت إلى الطين على الحجر. ثم إلى ابنها. ثم إلى الطين.

لم تفهم. لكن جسدها فهم قبلها. أخذت ورقة من شجيرة قريبة، ورفعت بها الطين دون أن تلمسه بيدها، كأنها تحمل جمرة. ووضعته في كف ابنها وطوت أصابعه عليه.

فسكن.

توقف الارتجاف، وتباعد النفَس، ووقفت البقعة الحمراء حيث بلغت. وعاد ابنها إلى ذلك المكان البعيد.

جلست رحمة على الأرض ترتجف. وقالت لنفسها بصوت عالٍ، لأنها احتاجت أن تسمعه:

«حين يقبض على الطين، يقف عنه الوقت. الدم لا يسيل، والجرح لا يكبر. كأن الليلة كلها لم تمر عليه.»

ثم فكرت في شيء آخر، فبكت لأول مرة منذ سقط ابنها. فكرت في صالح، وفي يوم واحد كان ينقصه.

٤

ربطت أصابع مروان على الطين بخيط سحبته من طرف ثوبها، وقالت له وهو لا يسمع: «لا تفتحها. لا تفتحها حتى نصل.» ومشت.

صار الطريق مختلفاً. لم تعد تسابق موت ابنها، فقد وقف موته معه. لكنها وجدت أنها تسابق شيئاً آخر.

فعند الظهر سقطت من قبضة مروان قشرة صغيرة من الطين.

كانت الشمس قد جففت الحفنة، فصارت تتشقق وتتفتت بين أصابعه. وكلما مشت سقط منها شيء. وفي كل مرة تسقط فيها قطعة كانت ترى ابنها يرتعش ارتعاشة صغيرة، كأنه يقترب خطوة من الاستيقاظ.

فهمت أن الطين سينفد قبل أن ينفد الطريق.

تبللت بما بقي معها من ماء ورطّبت أصابعه، فتماسك الطين قليلاً. ولم تشرب هي. ومشت في الشمس بلا ماء، وقدماها تتشققان، وظهرها ينحني حتى صار ظل الصبي على الطريق أطول من ظلها.

لم يكن على ظهرها جسد ابنها فقط. كان عليها يومان كاملان: يوم مر عليها هي بكل عطشه وتعبه، ولم يمر عليه هو إلا لحظة.

٥

دخلت المدينة عند العصر في اليوم الثاني. ولم يبقَ في قبضة مروان إلا كتلة صغيرة بحجم حبة التمر.

كانت عيادة الحكيم عوض مزدحمة. نظرت الممرضة إلى المرأة المغبرة والصبي المربوط على ظهرها، وقالت: «انتظري دورك.»

فجلست رحمة على الأرض، ووضعت مروان في حجرها، وأمسكت قبضته بكلتا يديها كي لا يسقط منها شيء.

ومر الوقت. وسقطت قشرة. ثم قشرة.

قامت ودخلت على الحكيم دون إذن.

رفع عوض رأسه غاضباً، ثم عرفها. رأت ذلك في عينيه قبل أن يتكلم: عرف وجهها وتذكّر الرجل ذا الذراع المسودّة.

قال بصوت أقل جفافاً مما أراد: «ضعيه هنا.»

فكّ الحزام ونظر إلى الجرح طويلاً، ثم سأل: «متى؟»

«قبل يومين. ضحى يوم الأحد.»

رفع عينيه إليها. «يا أم مروان، أنا أعرف الجروح. هذا جرح لم يمر عليه نصف يوم. الدم على حافته ما زال طرياً. جرح من يومين على طريق الوادي كان سيكون الآن متقيحاً، والصبي كان سيكون محموماً لا يعرفك. كما كان...»

وسكت.

قالت رحمة: «كما كان زوجي.»

لم يجبها.

قالت: «انظر.»

وفكّت الخيط عن أصابع ابنها، وفتحتها.

شهق مروان واستيقظ صارخاً، وانفجر الدم من الجرح يسيل على السرير الحديدي. فقفز الحكيم وضغط عليه بكفيه، وصاح بالممرضة أن تحضر الإبرة والخيط.

قالت رحمة بهدوء غريب: «الآن صار لي يومان أحسبهما. ولم يمر عليه منهما شيء. خِطه يا حكيم. هذه المرة جئتك في الوقت.»

٦

خاط عوض الجرح ومروان يصرخ ويمسك يد أمه. وحين شدّ الغرزة الأخيرة رفع رأسه ونظر إلى الحجر الصغير الأسود الذي سقط على أرض العيادة.

قال: «ما هذا؟»

«طين.»

«من أين؟»

لم تجبه.

جلس الحكيم على كرسيه، ونظر إلى يديه الملطختين بالدم طويلاً. ثم قال بصوت لم تسمعه منه من قبل:

«أتعرفين كم مات بين يديّ لأنهم وصلوا متأخرين؟ كم رجلاً وكم طفلاً قلت لأهلهم: لو جئتم قبل يوم؟ لو كان هذا الطين في كل بيت على طريق الجبل...»

«من أي وادٍ يا أم مروان؟»

نظرت إليه رحمة. وفكرت في الوادي الذي لا يعرفه أحد إلا أهل قريتها، وفي رجال المدينة الذين سيأتون بالبغال والمعاول حين يعرفون. وفكرت في الطين يُباع في سوق المدينة لمن يدفع، وفي قريتها تشتري ترابها بثمن لا تملكه.

وفكرت في صالح. لو كان هذا الطين في يده قبل سنتين لعاش.

ظلت ساكتة طويلاً. ثم قالت:

«الطين في كل وادٍ يا حكيم.»

ورفعت ابنها وخرجت.

٧

في المساء كنست الممرضة أرض العيادة، فجمعت الحجر الأسود الصغير مع التراب الذي جاء على أحذية المرضى، ورمته في الزقاق.

وبعد منتصف الليل خرج الحكيم عوض بمصباح، وظل جاثياً في الزقاق ساعة يقلّب التراب بأصابعه. ولم يجد إلا تراباً.

وفي الغرفة الصغيرة التي استأجرتها رحمة قرب السوق نام مروان نوماً عادياً، يتقلب ويعطش ويطلب الماء. ثم استيقظ في الفجر وسأل:

«أمي، كم نمت؟»

«قليلاً.»

«ورجلاك؟ لماذا هما هكذا؟»

نظرت إلى قدميها المشققتين، ثم غطتهما بطرف ثوبها.

«من الطريق.»

«لكنه طريق ساعة واحدة. ألم نصل بسرعة؟»

ابتسمت، ومسحت شعره، ولم تقل شيئاً.

٨

بعد سنين، حين كبر مروان وصار يصنع الثيران الطينية لأبنائه، كان يحكي لهم أنه سقط مرة من الجدار، وأن أمه حملته إلى المدينة في ليلة واحدة، وأنه نام على ظهرها فلم يشعر بالطريق.

ولم تصحّح له رحمة الحكاية قط.

لكنها كانت كلما نزلت إلى الوادي تنحني، وتأخذ حفنة من الطين بورقة شجرة دون أن تلمسها بيدها. ثم تلفّها في قماشة نظيفة وتخبئها في صندوق تحت فراشها.

ولم يسألها أحد لماذا. ولم تخبر أحداً.